ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

أسعد أبو خليل

«ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها
غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ»

أبو الطيِّب المتنبِّي

فليُبْشِرِ شعبُ لبنان! فوزير الثقافة (أيّ ثقافة؟) في لبنان يُعلن من دون تردُّد أنَّ القمَّة الفرنكفونيَّة المزمعَ عقدُها في تشرين الأول في لبنان ستشكِّل «الحدثَ الأكبرَ في تاريخ» هذا البلد (جريدة **النهار**، ٢ آب، ٢٠٠١). وكأنَّ ما شَهِدَه لبنانُ من حركات وثورات وتطوُّرات لا يُقاس بحجم القمَّة المرتقبة ـ وعلى أحرّ من الجمر ـ من قِبل مَنْ يُصرّ على قياس لبنان بمقاييس ومعايير غربيَّة إفرنجيَّة.

لكنَّ لموضوع الفرنكفونيَّة دلالاتٍ وعِبرًا تتجاوز هذا الموضوعَ في ذاته لتطول مواضيعَ تتعلَّق بالجدال غير المنتهي حول هويَّة لبنان (التي يصرّ أنطوان خويري في كتابه الصادر حديثًا على أنَّها «لبنانيَّة صرفة»). والفرنكفونيَّة موضوع يحتاج إلى تفصيل ونقاش لأنَّه في جانبٍ منه يتعلَّق بالعولمة، وفي جانب آخر منه يتعلَّق بـ «اللبننة»؛ ولهذا تحظى القمَّةُ الفرنكفونيَّة بالحماس الإعلاميّ الذي لا يستحقُّه إلاّ فتحُ الأندلس من جديد.

يجب بدايةً التوضيحُ أنَّ الفرنكفونيَّة موضوعٌ لا يمتّ إلينا أصولاً ودوافعَ بشيء، باستثناء لدى أولئك اللبنانيِّين (واللُّبنانيَّات) الذين (واللواتي) رَضِعوا منذ نُعومةِ أظفارهم من «حليب الأم الحنون» ـ على حدّ قول جمال عبد الناصر في خطابه الشهير. فالفرنكفونيَّة مماثلةٌ سياسيّاً وإمبراطوريّاً لهيكليَّة الكومنولث التي أنشأتْها بقايا الإمبراطوريَّة التي غابَتْ عنها الشمسُ ـ وإلى غير رجعة ـ حتى لا تتحوَّل ذكراها إلى مجرَّد حنين رومنطيقيّ. وبصورة مماثلة، حاولتْ فرنسا الحفاظَ على ما تبقَّى لها من وهج (أوْ ما كان يسمِّيه شارل ديغول بـ «gloire» ـ أيْ مجد فرنسا العريق). وحَمِيَتْ حميَّتُها مؤخّرًا في مواجهة العولمة (وهي في تجلِّياتها الثقافيَّة أميركيَّةٌ، وإنكليزيَّةٌ لغةً) كي لا يزول أريجُ مصدر إشعاعٍ ثقافيٍّ قديمٍ يَفْخر به أهلُ ذلك البلد.

ولا تُخفي فرنسا نيّاتِها أبدًا. ولهذا تَجِد وزيرَ خارجيَّة فرنسا يتحدَّث جهارًا ومِنْ دون مواربة عن أهداف الفرنكفونيَّة، وعن «الذعر» الفرنسيّ من هيمنة الثقافة الأميركيَّة العالميَّة.[1] وتَعْلم فرنسا أنَّ اللُّغة الفرنسيَّة كانت تحتلّ مركزَ الصدارة بوصفها لغةَ الأرستقراطيَّة الثقافيَّة، إلاَّ أنَّ الاجتياح الأميركيّ عبر اللُّغة الإنكليزيَّة ومن خلال وسائل الاتِّصال الحديثة (خصوصًا الكومبيوتر) رَفَعَت اللُّغةَ الإنكليزيَّةَ إلى مرتبة اللُّغة العالميَّة التي أصبح لزامًا على المرء تعلُّمُها أو إتقانُها أو حتى الإلمامُ بها. بل إنَّ نحوًا من ٦٠ في المائة من سكّان القارة الأوروبيَّة يُتقنون أو يُلِمّون بالإنكليزيَّة، وكلُّ هذا على حساب ثقافات ولغات أخرى.[2] وتَفْتقر الجامعاتُ الفرنسيَّة إلى طلاّبِ وطالباتِ النخبة من سكّان العالم الذين (واللواتي) كانوا (وكنَّ) يَفدون (ويَفِدْنَ) إلى جامعات فرنسا للحصول على شهاداتها البرّاقة. البريق هذا زال: فقد اندثر تحت محدلة العولمة التي لا يقف في وجهها حجرُ عثرةٍ من أيِّ جهةٍ.

ولأنَّ العولمة حربٌ (سلميَّةٌ وعسكريَّةٌ في آن)، فإنَّ الفرنكفونيَّة هي أيضًا جزء من حرب العولمة: بين فرنسا التي تحاول بصعوبةٍ بالغةٍ

١ ـ يراجع كتابه: Les cartes de la France à l'heure de mondialisation (Fayard, 2000).

٢ ـ راجع الرسم البيانيّ الوارد في مجلة **الإيكونومست** في الصفحة المقابلة.

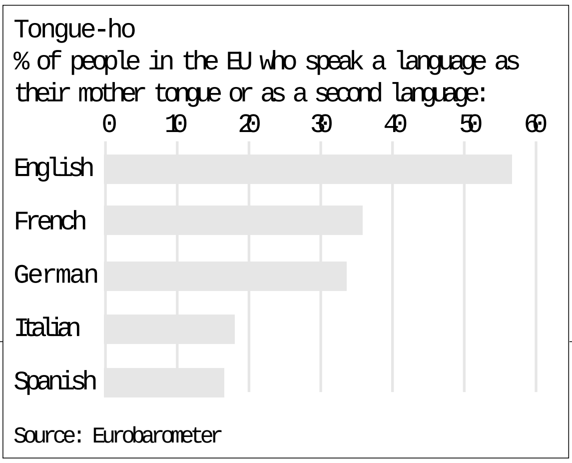

حوالى ٦٠٪ من الأوروبيّين يتحدّثون الإنكليزيّة لغةً أولى أو ثانية (عن مجلة الايكونوميست)

الحفاظَ على متبقِّيات وهج ثقافيّ عريق كان لها في يومٍ ما، والإصرار الأميركيّ على طمر كلِّ مَنْ يقف في وجه الزحف الأميركيّ السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ.(١) وتحاول فرنسا، معتمدةً على علاقات ورثَتْها من عهد الاستعمار، استغلالَ صلاتها بمستعمَراتٍ سابقةٍ لها لبعث الروح (أو ما تبقّى منها) في جسم المنظّمة الفرنكفونيّة.

أمّا لماذا يتنطّح لبنانُ اليومَ (ولبنانُ دومًا يتنطّح لإثبات عدم عروبته، مع أنّ وزير الثقافة الحاليّ يتمتّع برصيد عروبيّ وعلمانيّ حافَظَ عليه عبر سنوات الحرب ـ وهنا المفارقة) للدخول في معمعة الفرنكفونيّة، فالجواب يوجد في خضمّ السياسة اللبنانيّة لا في أزمة حروب العولمة الضروس. فالحقّ أنّ موضوع الفرنكفونيّة لا يَخْتلف البتَّةَ عن الصراع على هويّة لبنان، وهو صراع وَسَم التاريخَ اللبنانيَّ المعاصر.

الفرنكفونيّة وهويّة لبنان

ليس من المُسْتغرب أن يَبْذل لبنان الرسميّ في موضوع الفرنكفونيّة حماسًا لم يَبْذلْه في معركة تحرير الجنوب: فهذه المعركة (التي وقفت الدولةُ اللبنانيّةُ إزاءها موقفَ المتفرّج الخنوع أو موقفَ المؤيِّد الخجول) معركةٌ لا تَعْني الكثيرَ من رجال السياسة والطائفة في لبنان خصوصًا ـ والتذكير هنا ضروريّ خشيةَ تكرار تجربة الحلف اليمينيّ مع إسرائيل والتي لم تنفصم عراها بعدُ على ما يبدو. بل إنّ في لبنان مَنْ يَعْتبر المعركةَ مع إسرائيل معركةً «مفروضةً» على لبنان؛ وقد يكون النائب ألبير مخيبر أكثرَهم صراحةً في التعبير عن هذا الاتّجاه.

ويحبّ أهلُ النخبة في لبنان ترويجَ مقولةٍ سمجة، وهي أنّ اللبنانيّ (وربّما بظنّهم اللبنانيّة أيضًا، مع أنّهم يَفْتقرون إلى الحسّ الأدنى من الاستجابة لقضايا المساواة بين الرجل والمرأة) يُتْقن ثلاثَ لغات (قد تكون العربيّةُ منها ـ لا ندري)(٢). لكنْ مَنْ هو ذلك اللُّبنانيّ المقصود: أهو اللُّبنانيّ في عكّار والجنوب والجبل، أم أنّ أهل النُّخبة يعمِّمون تجربتَهم الطبقيّةَ والنخبويّةَ على مُجْمل شعب لبنان؟ ثم مَنْ يُثْبت أنّ أهل النُّخبة هؤلاء هم حقّاً ضليعون في لغات ثلاث؟ مَن امتحن هؤلاء المدَّعين... علمًا أنّ اللُّبنانيّ الذي تعلَّم، واللُّبنانيّةَ التي تعلَّمتْ، في مدارس بيروت الخاصّة وجامعاتها، يَبْذلان جهدًا سخيفًا لا لإتقان اللُّغة بل اللَّكنة ـ واللَّكنةُ بالنسبة إليهما أهمُّ من اللُّغة لأنَّها قادرةٌ على ربطهما فورًا بثقافة يحاولان أيّما محاولةٍ الالتصاقَ بها حتى وإنْ نبذَتْهما.

ويَذْكر رئيسُ لبنان الأسبق شارل الحلو(٣) في واحد من كتب مذكّراته (وهي غيرُ واحدة) كيف أنّه زار برفقة شارل ديغول الأكاديميّةَ الفرنسيّةَ، وكيف أنّ الحلو تدخَّل (هكذا وبصفاقة) في نقاش في الأكاديميّة حول اصطلاح لغويٍّ ما، وكيف أنّ ديغول حَسَمَ الموضوعَ بأنّ الحلو كان على حقٍّ!(٤) والحال أنّ محاكاة الثقافة الفرنسيّة، في عقليّة اليسوعيّة السياسيّة التي حكمتْ لبنانَ

١ ـ تعبير «ثقافيّ» هنا مُستعمَلٌ بتحفُّظ شديد، لأنّ منتوجات الثقافة الأميركيّة تَدْخل في حيّز الثقافة الشعبيّة المبتذلة مثل أفلام العنف وألعاب الفيديو والإنتاج الموسيقيّ الضحل.

٢ ـ يصرّ سليم عبّو، رائدُ التنظير الفرنكفونيّ، على إدراج أرقام شبه خياليّة عن نسبة «ثنائيّي اللُّغة» في لبنان. فيَذْكر ـ وفقًا لأرقام تخلو من المصداقيّة ـ أنّ ٣٩٪ من المسيحيّات و٢٨٪ من المُسْلمات يُتْقِنّ العربيّةَ والفرنسيّةَ. أُنظرْ: Selim Abou, Le bilinguisme Arabe - Français au Liban (Paris: Presse Universitaire de France, 1962), p. 111.

٣ ـ للتذكير، فإنّ الحلو كان ناشطًا كتائبيّاً في شبابه.

٤ ـ Charles Helou, Memoires (Araya: Imprimerie Catholique, 1984).

ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

وبَنَتْ لَبِناتِ ثقافته السياسيَّة، هي جزء من الولاء للوطن (وطنِ الأرز أو الوطن الذي هو «جزء من اللَّه» على حدّ تعبير شارل الحلو،[1] أو الوطن الذي هو «قطعة سماء» وفقًا لحنجرة وديع الصافي). فاللُّغة الفرنسيَّة خدمتْ أغراضَ غلاة القوميَّة اللبنانيَّة (ويُمْكن القول إنَّ كل دعاة القوميَّة اللبنانيَّة هم من الغلاة).

ولمواجهة واقع عروبة لبنان وثقافته برزتْ محاولتان لإجهاض تعريب لبنان ولإثبات إزدواجيَّةِ أو ثلاثيَّةِ ولاء هويَّته السياسيَّة. وقد قاد المحاولةَ **الأولى** سعيد عقل وميّ المرّ ومَنْ تبعهما من روّاد «اللُّغة اللبنانيَّة» المكتوبة بالحرف اللاتينيّ. لكنَّ هذه المحاولة باءت بفشل ذريع، واستقبلها لبنانُ الشعبيُّ بالسخرية التي تستحقُّها هذه الفكرةُ ويستحقّها صاحبُها (الذي لا يتعرَّض في حديثه عن «الفينيقيَّة» و«الحضارة اللبنانيَّة» للتهميش والهزء اللذَيْن يَفْرضهما التأريخُ الأكاديميُّ حول الموضوع). أمَّا المحاولة **الثانية** لدحض عروبة لبنان فتجلَّت أكثرَ ما تجلَّت في الإنتاج الأدبيّ والسياسيّ لليسوعيَّة السياسيَّة، التي حاولتْ وبنجاحٍ رَسْمَ علامة استفهامٍ حول هويَّة لبنان. ألم يَكُنْ بيار الجميّل يجيب عن سؤال هويَّة لبنان بالقول إنَّ هناك حاجةً إلى خبراء لتقرير هذه المسألة؟

وهذا ما حدث، وهذا ما نَجَحَ رياض الصلح في رَسْمه هو أيضًا حين وَصَفَ لبنانَ بأنَّه «ذو وجه عربيّ،» موحِيًا أنَّ الاستنتاج المنطقيّ لذلك هو أنَّ يدَ لبنان أو رِجْلَه أو... أجنبيَّة!![2] ولئن حَسَمَ

١ ـ Charles Helou, Liban: cette part de Dieu (Beirut: Librairie Antoine, 1992).

٢ ـ تحاول ماكينةُ الدولة وأموالُ حفيد رياض الصلح، الأمير الوليد بن طلال، إقناعَنا بأنَّ رئيس الوزراء الأسبق هذا كان «بطلَ الاستقلال.» غير أنَّ اجتماعات الصلح السريَّة والعلنيَّة بالقادة الصهاينة (بمن فيهم حاييم وايزمان ودايڤيد بن غوريون) مذكورة عند بعض المؤرِّخين وإنْ بقيتْ مجهولةً لدى معظم اللبنانيِّين واللبنانيَّات؛ وقد أتى على ذِكْر تلك الاجتماعات المؤرِّخ آڤي شلايم في كتابه Collusion across the Divide المنشور في نيويورك عن منشورات جامعة كولومبيا عام ١٩٩٨. لكنَّ الاتِّهام الأخطر هو حول علاقة الصلح بالمنظَّمة الصهيونيَّة المركزيَّة، ويُمْكن تدعيمُه بالنظر إلى الأوراق الخاصة لحاييم وايزمان، أوّلِ رئيس دولةٍ لإسرائيل. فقد وَرَدَ في هذه المذكّرات خبرُ اتّصال الياس ساسون برياض الصلح (والأوّل هو من الروّاد السبّاقين في تجنيد عرب لمصلحة الصهيونيَّة ونَجَحَ أيّما نجاح في ذلك مع حزب الكتائب بحسب كتاب Schulze Kirsten **ديبلوماسيَّة إسرائيل السريَّة في لبنان** الصادر في نيويورك عن دار نشر سانت مارتين عام ١٩٩٨). انظرْ ص ٢٨٠ من كتاب وايزمان:

The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Series A, Vol. X, July 1920 - Dec. 1921.

وهو كتاب صَدَرَ في القدس المحتلَّة عن «منشورات جامعات إسرائيل» عاميْ ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥. بل يورد محرِّر المجلّد، واسمُه برنارد واسرتين، معتمدًا على وثائق إسرائيليَّة وصهيونيَّة غير منشورة، وذلك في حديثه عن اجتماع سريّ في منزل المموِّل الصهيونيّ روتشيلد مع وايزمان، أنَّ الصلح كان «تحت واجبٍ ماليّ من الصهاينة،» أيْ أنَّه كان مدفوعًا ماليّاً من قِبَلهم؛ والعبارة بالإنكليزيَّة: «He was under financial obligation to the zionists.»

وقد تطوَّع الصّلح في تشرين الثاني ١٩٢١، وبعد لقاء خاصٍ مع وايزمان، لإقناع مجموعة من «السوريِّين» باللِّقاء مع الصهاينة بِمَنْ فيهم صديقه وايزمان نفسه. فتمَّ الاجتماع في ١٨ آذار ١٩٢٢ في القاهرة (وذلك أيضًا بحسب مذكّرات وايزمان نفسها، المجلّد ١١، السلسلة A أيضًا، الصادر بين يناير ١٩٢٢ ويوليو ١٩٢٣، الرسالة رقم ٧٥). وفي بيان رسميّ أمام اللَّجنة التنفيذيَّة للمنظّمة الصهيونيَّة في أكتوبر ١٩٢١ ذَكَرَ وايزمان أنَّ الصلح كان مستعدّاً «لقبول الصهيونيَّة ووعْدِ بلفور كأمرٍ واقع.» (أنظر المذكّرات نفسها، السلسلة B، المجلّد I، أغسطس ١٨٩٨ ـ يوليو ١٩٣١، وقد صدرتْ في نيو برونزويك عن منشورات كتب Transaction عام ١٩٨٣، الصفحة ٣٣٤). وفي الصفحة نفسها أشار محرِّر هذا المجلّد (وهو غير محرّر المجلّد الأوّل) إلى أنَّ الصّلح كان مدفوعًا من قبل الصهاينة، وأنَّه كان في مهمّة اتّصال سلميّ مع اليهود حين اغتيل.

اتفاقُ الطائف الموضوعَ ظاهريّاً أو نظريّاً باتِّجاه عروبة لبنان، فإنَّ التاريخ اللبنانيّ الحديث والقديم لا يشير إلى ديمومة الاتِّفاقيَّات الموقَّعة والمعقودة؛ وتجربةُ الحلف مع إسرائيل، وهي ضمَّت بالإضافة إلى أمين الجميِّل (العائد مظفَّرًا إلى لبنان) العديدَ من طاقم السياسة اللبنانيَّة التقليديَّة والتقدُّميَّة، مثال صارخ على سرعة تقلُّب الأهواء والاتِّجاهات مع تعديل ميزان القوى المسيطرة في لبنان. فهل هناك مَنْ يصدِّق فعلاً مثلاً أنَّ حزب الكتائب بات عروبيّاً، وأنَّه اعتنق بصدقٍ التحالفَ الاستراتيجيَّ مع سوريا؟! الحقّ أنَّ مسألة هويَّة لبنان لم تُحْسَمْ مطلقًا في اتفاقيَّة الطائف وما تلاها من تعديلات في صلب الدستور، إذ إنَّ منطق «نهائيَّة» و«سرمديَّة» الوطن اللبنانيّ يَهْدف إلى قطع الطريق على محاولات دمج لبنان في محيط عربيّ أوسع.

في هذا الإطار تأتي الضجَّة المثارة حول الفرنكفونيَّة، والأجواءُ الاحتفاليَّة التي تَسْبق انعقادَ القمَّة المنشودة. ومثلما تتحوَّل مبارياتُ الرياضة في لبنان فرصةً للابتهاج والتحدِّي الطائفيَّيْن، فإنَّ الاحتفال بالفرنكفونيَّة يَهْدف إلى تكريس تشويش عروبة لبنان وترويج أجنبيَّةِ بلدٍ باتت نُخَبُه (على غرار نُخَبِ دول أخرى في العالم) تفضِّل الإنكليزيَّةَ على الفرنسيَّة. لكنَّ الفرنكفونيَّة هنا ليست لغة، وإنَّما هي إيديولوجيا.

إيديولوجيا الفرنكفونيَّة في لبنان

تَحْمل إيديولوجيا الفرنكفونيَّة في لبنان معالمَ إيديولوجيا اليمين الطائفيّ بكلّ تضاعيفها. لكنَّ لَبْسًا بات يلفّ الموضوع، إذ إنَّ تشوُّشًا ما قد طرأ: فهناك مِنْ أقطاب السياسة التقليديَّة الإسلاميَّة (مثل الحريري، وهو تقليديٌّ بالرُّغم من حداثة عهده في السياسة في لبنان) مَنْ يُبْدي حماسًا للفرنكفونيَّة؛ وقد أَعْلمني وزيرُ الثقافة أنَّ هناك مِنْ شيعة أفريقيا مَنْ يدعم مؤتمرَ الفرنكفونيَّة. لكنَّ قضيَّة الحريري خاصَّةٌ بحكم صداقته برئيس جمهوريَّة فرنسا (ونحن لم ندرِ قطُّ ماهيَّةَ هذه الصداقة، ومِنَ الصَّعب التصديقُ أنَّها مبنيَّة على ظرافة شخصيَّة الحريري أو على طرافته).

ومن الضروريّ التذكير أنَّ الثقافة السياسيَّة في لبنان تغيَّرتْ جذريّاً بعد إعلان وقف الحرب إعلانًا رسميّاً. فالمنطق السائد يقول بانتصار الخطّ العروبيّ في لبنان، مع أنَّه من الممكن الحُكْمُ بانتصار إيديولوجيا اليمين اللبنانيّ بالرُّغم من هزيمته العسكريَّة بعد التدخُّل السوريّ والانكفاء الإسرائيليّ. وهناك الكثير من لَبِنات إيديولوجيا حزب الكتائب باديةٌ للعيان في معالم جمهوريَّة لبنان الجديد: من العداء المطلق للشعب الفلسطينيّ في لبنان (تحت شعارات مختلفة مثل «محاربة مشروع التوطين» المزعوم)، إلى المغالاة في الوطنيَّة اللبنانيَّة، فمحاكاةِ الغرب المبتذلة السائدة في ثقافة لبنان الشعبيَّة، بالإضافة إلى السخرية من كلّ ما هو عربيّ في برامج التلفزيون اللبنانيَّة. وهناك أيضًا منطقُ رفض تحميل اللبنانيِّين (واللُّبنانيَّات) مسؤوليَّةَ الحرب في لبنان وعزوها إلى «الآخرين،» بحسب عنوانِ كتابٍ بالفرنسيَّة لغسان تويني.[1] كما انتعشتْ إيديولوجيا اليمين بحكم تبنِّي أحزاب سائدة في الوسط الإسلاميّ (مثل حركة «أمل» والحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ) كثيرًا من مبادئها.

والإيديولوجيا الفرنكفونيَّة تَحْشر لبنان حشرًا في وسط التراكم الاستعماريّ للإرث الفرنسيّ. فتجربة لبنان تحت الاستعمار الفرنسيّ كانت قصيرة نسبيّاً، مع أنَّ بعض اللبنانيِّين واللبنانيَّات

١ ـ Ghassan Tuéni: Une guerre pour les autres (Paris: I.C. Lattès, 1985).

أراد للحقبة الاستعماريَّة أن تطول.[١] فلبنان، من حيث طولُ السيطرة الفرنسيَّة عليه، ليس الجزائر ولا السنغال، لكنّ المحاولات المصطنعة لإدراج لبنان في الدول الفرنكفونيَّة تَهْدف أكثرَ ما تَهْدف إلى إعطاء بديل (وإنْ كان غيرَ منطقيّ ومصطنعًا) لعروبة لبنان. أيْ ثمَّة مَنْ يظنّ أنَّ بديل «غـربنة» لبنان واقـعيّ، ويمثّل جـزءًا من الاستعلاء الطائفيّ الذي بُني لبنانُ على أساسه. وفي هذا الصدد، فإنَّ فلسفة بناء لبنان (أو فلسفة الميثاق الوطنيّ كما يقول كمال الحاج)[٢] بُنيتْ على أساس التفوُّق النوعيّ لطائفة على أخرى، واقتضَتْ تلك الإيديولوجيا تحقيرَ طائفةٍ بدينها وبتوجُّهها الثقافيّ الحضاريّ والقولَ بارتباط طائفةٍ «مضادّة» بحضارة غربيَّة متفوّقة.

ولهذا، فإنَّ التخاطب السياسيّ النخبويّ بين أهل اليمين كان يتمّ بالفرنسيَّة، لأنَّ الاعتراف بمركزيَّة اللُّغة العربيَّة يُعتبر تنازلاً سياسيّاً غيرَ مفيد. واللافت أنَّ شارل حلو وكميل شمعون وَضَعَا مذكّراتهما بالفرنسيَّة، وإنْ تُرجمتْ فيما بعد. وانتهجتْ هيكليَّةُ قيادة اليمين اللبنانيّ أسلوبًا آخر يتمثّل في تجاهل العربيَّة الفصحى، والإصرار على الحديث باللَّهجة العاميَّة وتنصيبها عشوائيّاً «لغةً لبنانيَّةً» كما يدَّعي الكثيرُ من غلاة القوميَّة اللبنانيَّة؛ وفي هذا طبعًا تناقضٌ صارخٌ مع أبسط قواعد العلوم اللُّغويَّة. لكنَّ هذا الإصرار، الذي رَفَعه بشير الجميّل إلى مرتبة العقيدة، بات سائدًا في لبنان اليوم حيث غدَت اللَّهجاتُ البيروتيَّةُ والجنوبيَّةُ والبقاعيَّةُ مغيَّبةً لأنَّ الكلّ يقلّد هذه النمطيَّة المحكيَّة وكأنَّ شعب لبنان كلَّه وُلِدَ في الأشرفيَّة! ولأنَّ النخبة عمَّمتْ هذه اللَّهجة فإنَّ الأجيال الجديدة ـ التي تتقن المحاكاة ادّعاءً للتطوُّر والتماشي مع «المُوَض،» أيّاً كانت هذه «المُوَض» مادامت غربيَّة المصدر ـ ستبتعد باطّراد عن نفسها وثقافتها.

ويُمْكن ملاحظةُ سيادة لهجة بشير الجميّل في برامج أقنية التلفزيون ذاتِ الجمهور الأوسع (مثل LBC و«المستقبل» والـ MTV)، حيث يتمّ طمسُ اللُّغة العربيَّة بنجاح. والنتاج هو خليط غريب عجيب من اللُّكنة اللبنانيَّة ومن مفردات إنكليزيَّة وفرنسيَّة غالبًا ما تكون في غير محلّها وفي غير معناها الأصليّ.

ماذا بقي من الثقافة اللبنانيَّة؟

إنَّ محاولة تزاوج «الثقافة اللبنانيَّة» مع الثقافة الغربيَّة تطوَّرتْ باطّراد منذ الاستقلال، بل في فترة ما قبل الاستقلال أيضًا. لكنّ كل الإنتاج الأدبيّ في لبنان هو إنتاج أدبيّ عربيّ من لبنان، حتى وإنْ سُمِّي زورًا بـ «الثقافة اللبنانيَّة.» واستعمال مصطلح «الثقافة اللبنانيَّة» اعتباطيّ لأنَّ اعتبار وجود ثقافة يحتاج إلى دعائم وأركان لا تتوفَّر في لبنان. صحيح أنَّ في لبنان مَنْ أسْهم في ما أسماه ألبرت حوراني بـ «العصر الليبراليّ،»[٣] غير أنَّ هذه الإسهامات نَهَلَتْ من معين الأدب العربيّ التقليديّ وتصبّ مباشرةً في الكمّ الأدبيّ العربيّ المعاصر. فمَنْ يستطيع مثلاً أن يَعْتبر كتابات الشدياق كـ **الساق على الساق** (وهي تتخطَّى المكانَ اللبنانيَّ بوضوح وفيها مِنَ التهكُّم على الإكليروس المارونيّ ما فيها) أدبًا

١ ـ ومنهم إميل إدّه (الذي كان يُرافع بالفرنسيَّة في المحاكم اللبنانيَّة حَسْبما روى وليد عوض في كتابه عن رؤساء ما قبل الاستقلال) ومَنْ يُمثِّل، وألفرد نقّاش ومَنْ يمثِّل؛ والاثنان تبوَّآ مراكزَ سلطة بعد حلّ المجلس التمثيليّ وتغييبِ الدستور من قِبل السلطات الفرنسيَّة، مع أنَّ منهاج التاريخ في المدارس اللبنانيَّة يتعاطى مع الاثنين باحترام وأحيانًا بتبجيل.

٢ ـ كمال يوسف الحاج، **الطائفيَّة البنّاءة أو فلسفة الميثاق الوطنيّ** (بيروت: مطبعة الرهبانيَّة اللبنانيَّة، ١٩٦١).

٣ ـ ألبرت حوراني، **الفكر العربيّ في عصر النهضة** (بيروت: مؤسَّسة نوفل، ١٩٩٧).

لبنانيّاً؟ كما أنَّ كتابات الرابطة القلميَّة كانت (وخصوصًا عند جبران) تجربةً أدبيَّةً عربيَّةً، بالرُّغم من محاولات الدولة اللبنانيَّة الناجحة للبننة جبران خليل جبران من قِبل ورَثَة لويس شيخو ومجلة **المشرق** نفسهم، الذين كتبوا في أعداد المجلة نفسها قبل وفاة جبران وبعدها الكثيرَ عن سوء هذا الأديب وشرِّه.[1]

أمَّا عن النتاج اللبنانيّ بالفرنسيَّة، فإنَّه بالرُّغم من وجود نماذج راقية من الشعر والمسرح والرواية (صلاح ستيتيّة، جورج شحادة،...) فإنَّه ممّا لا شكّ فيه أنَّ الجهاز الإعلاميّ الضخم والفعّال لجريدة **النهار** كان وراء ظاهرة إبراز بعض الشعراء على حساب شعراء لبنانيِّين وعرب آخرين أعظمَ ولكنَّهم مخالفون سياسيّاً لتوجُّهاتها.[2]

---

١ ـ إنَّ نقدَ وتهشيمَ «الآراء الكُفْريَّة والأقوال الخلاعيَّة» لجبران (أنْظر **المشرق**، السنة ٢١، عدد ٢٩ أيلول ١٩٢٣، ص ٨٦٦) وَرَدا في أعداد مختلفة من **المشرق**. ونَشَرَ أمين خالد في ثلاث حلقات نقدًا عنيفًا لأدب جبران (أنظر السنة ٣٠، أعداد تموز وآب وأيلول من عام ١٩٣٢). ولم يتورّعْ لويس شيخو عن اتِّهام جبران بالجنون (أنظرْ سنة ١٩٢٤، المجلّد ٢٢، ص ٥٥٥ والمجلّد ٢٤، عدد ٦، حزيران ١٩٢٦، ص ٦٣٣). ونجد أنَّ المؤسَّسة اليسوعيَّة (بالمعنى السياسيّ)، وبسحرِ ساحرٍ، حوّلتْ جبران من كاتب كافر ومنبوذ إلى بطل مسيحيّ لبنانيّ. ففؤاد أفرام البستاني مثلاً يتّهم جبران بالجنون وبحمل «الأفكار الفاسدة،» ويشبِّهه بـ «بولشفيك روسيا التاعسة،» ويحذِّر «العقلاءَ» مِنْ شُرْب سُمِّه (أنظر **المشرق** عدد ١٠، السنة ٢١، تشرين الأول، ١٩٢٣)؛ ولكنّ موقفه نحو جبران يتغيَّر فجأةً في سنة ١٩٣٩ في مقاله «على ذِكْر جبران» (السنة السابعة والثلاثون، نيسان ـ حزيران ١٩٣٩). ففي هذه المقالة يقف البستاني موقف المحايد والمعجَب بأدب جبران، ويلمّح إلى احتمال وفاته كاثوليكيّاً (ص ٢٦٥)، وإلى صداقته ببعض رجال الإكليروس (ص ٢٦٣)، مع أنَّ ميخائيل نعيمة في سيرته عن جبران حَسَمَ الموضوعَ بالسَّلْب. وكان موقف شيخو من جبران والريحاني وفرح أنطون موقفًا طائفيّاً إذ رأى فيهم أناسًا باعوا دينَهم. وقد سمَّى شيخو الريحاني تهكُّمًا «محمد الرِّيحاني» (**المشرق**، السنة الحادية والعشرون، العدد ٦، حزيران ١٩٢٣، ص ٤٨٨)، وزاد أنَّه ذو «رائحة منتنة!» (ص ٤٩١)

٢ ـ احترامًا لتراث مجلَّة الآداب في النقد الأدبيّ، من الضروريّ التوضيح أنَّني هنا أعبِّر عن رأيي كقارئ لا أكثر. لكنَّني سأستَشْهد بمقاطع من شعر نادية تويني وشوقي أبي شقرا لإقناع القارئ والقارئة بما أعنيه. ففيما يلي مثلاً ما تفتَّقتْ عنه قريحةُ نادية تويني بعد اجتياح ١٩٨٢ الوحشيّ (والنصوص من كتابها La terre arrêtée الصادر عن دار النهار عام ١٩٨٦، الصفحات ٣٦٤ و ٢٩٣ و٢٨٧):

Beyrouth /Étrange capitale /Écho d'homme /à multiple errances, /Unis sur le gibet de la parole.

أو: Je vous salue /Vous qui êtes, /Dans la simplicité d'une racine, /Avec la nuit pour chien de garde, /Vos bruits ont la splendeur des mots...

أو: En un lieu de cruches et de vent. /En un lieu de point et de route. /En un lieu de jeune comme l'eau. /En un lieu où le pied se pose. /Comme une fleur sur un ruisseau.

وفيما يلي بعض مقاطع من قصائد أبي شقرا (من كتاب **ماء إلى حصان العائلة** الصادر عن دار مجلّة **شعر** عام ١٩٦٢، الصفحات ١٢، ١٤، ١٥): «ابنةُ عمِّي راعية في المتحف. أختي تتزحلق، تجرّ في طريقها الثلجَ والمباريات الرياضيَّة. ابنها عشبة. أمّي صخرة أقطع عليها النهر»؛ «أسافر في الجوّ إلى خالتي الوحشيَّة. آكل الدجاج بين فخذيها. أمصّ العظام. لها لحم ناعم كورق الرسائل»؛ «نظراتي حبّة مسك. خسّة يأكلها البط العوّام.» أو أقرأْ هذه المقاطع من ديوانه **يتبع الساحر ويكسر السنابل راكضًا**، الصادر عن دار النهار عام ١٩٧٩ (الصفحات ٩، ٥٣، ٧٨): «أبتسم. صحن السلطة والحقول بين أسناني، والآفاق ريشاتٌ في قبَّعاتي، متفرِّقة كالمعز في الجبال»؛ «أزْرع سفرجلاً في صالات السينما. الرجال قبل الظهر يتفرَّجون، والنساء بعد الحمام الساخن»؛ «نام على ظهره، أثقل من زئبق، من بطاطا، رفع السلاح، رفع رجليْه غصبًا عنه، حبشة مذبوحة منتوفة، وشرواله كتّان أبيض. ثمّ طز [!]»

ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

إنَّ الثقافة «اللبنانيَّة» هي الثقافة العربيَّة في لبنان. فالحق أنَّ عوامل الثقافة المستقلّة منعدمة في لبنان الصغير (مهما كَبَّروه عنوةً). كما أنَّ تجلِّيات الأدب العربيّ تختلف من منطقةٍ أو دولة وأخرى مثلما يَلْحظ المرءُ تغيُّرًا ملموسًا في الطابع المعيش للحياة بين منطقة وأخرى في لبنان. والإصرار على وجود الثقافة «اللبنانيَّة» يَهْدف إلى بلورة صيغ متعدِّدة من منطق «القوميَّة اللبنانيَّة» التي لم تستنزفْ قواها بعدُ، بل تحاول النهوضَ من جديد نتيجةً لمنطق الشوفينيَّة اللبنانيَّة التي تُسْنِهم وسائلُ الإعلام الحديثة في إحيائه مجدّدًا، وهو لم يَمُتْ يومًا أصلاً.

والثقافة «اللبنانيَّة» هي ـ في منطق الحرب اللبنانيَّة التي يُزعَمُ أنَّها لن تعود أبدًا ـ ثقافةٌ انعزاليَّة بالمعنى الحرفيّ: إنَّها ثقافةٌ ذاتُ غرض سياسيّ يَهْدف إلى فصل عُرى لبنان الطبيعيَّة والمنطقيَّة عن العالم العربيّ، وإلى اختلاق روابط وهميَّة مع الغرب. وعلاقة الفاتيكان مع الكنيسة المارونيَّة تاريخيّاً ساعدتْ في تعزيز وَهْم الرابط الغربيّ، مع أنَّ سُدَّة البابويَّة شكّلتْ في التراث الفكريّ الأوروبيّ قوَّةً ظلاميَّةً قاومتْ (وتقاوم بعناد) أفكارَ وحركاتِ التنوير والمساواة.[1] أيْ انَّ الشعارات البرّاقة عن «الحريَّة» عند بعض اليمين المسيحيّ ـ مع التأكيد أنَّ اليمين مُعشّش في صفوف كل الطوائف ـ تَصْطدم بتوجُّهات الكنيسة الأمّ. وهذا لا يُعْفي طبعًا جلَّ النخبويَّة الطائفيَّة، على اختلاف مذاهبها ومشاربها، من مسؤوليَّة تأجيج الصراعات الطائفيَّة والمذهبيَّة بهدف شرعنة مصالح سياسيَّة واقتصاديَّة سائدة. ولكنَّ التوسُّع في هذا الموضوع قد يكون مستحيلاً في «جمهوريَّة» ضَرْبِ الطلاَّبِ أمام قَصْر العدل ـ يحيا العدل!

مقاومة الفرنكفونيَّة

قد يكون (أو قد يبدو) هدفُ مقاومة الفرنكفونيَّة في خضمّ الأزمة المعيشيَّة الخانقة التي يعيشها شعبُ لبنان هدفًا طوباويّاً لا علاقة له البتَّةَ بحياة اللبنانيِّين واللبنانيَّات. وهناك اليومَ استنفارٌ لقوى الشعب اللبنانيّ نتيجةً لتراكم المشاكل والديون والوعود (منذ أَطْلق الحريري شعارَ «انتظار الربيع» منذ نحو عشر سنوات). لكنْ إذا نظر المرءُ إلى أزمة لبنان الحاليَّة، وهي أزمة سياسيَّة ـ اقتصاديَّة متشعِّبة مرتبطة ارتباطًا عضويّاً بمشاكل دول العالم الذي يحاولون إقناعنا بأنَّه ينمو باطّراد، فإنَّ الفرنكفونيَّة رديفٌ للعولمة من حيث سعيهما إلى إدراج لبنان في خانة الصراع بين دول المركز الرأسماليّ نفسه (فرنسا والولايات المتحدة).

وهذا الصراع، كما سَلَفَ الذِّكْرُ، لا يعنينا من قريب ولا من بعيد، إلاّ إذا اعتبرنا هزيمةَ فرنسا سياسيّاً وثقافيّاً هزيمةً لنا نحن، على نسق الشعار المتخاذل: «فرنسا أمّ الدنيا عمومْ، اعتزُّوا يا لبنانيِّي!» وهو شعارٌ أطلقته حناجرُ بعض الجماهير خلال استعمار فرنسا لنا. كما أنَّ مقاومة العولمة في كل تجلِّياتها لا تَعْني بالضرورة تغليبَ جزء من المعسكر الرأسماليّ وتفضيلَه على غيره: فما هي منفعتنا من حسابات الربح والخسارة بين فرنسا وأميركا؟!

إنَّ مقاومة الفرنكفونيَّة هي في صلب الصراع السياسيّ اللبنانيّ، لأنَّ في الانبطاح أمام تلك القمّة «التاريخيَّة» الآتية تسليمًا بتغريب لبنان على حساب تعريبه. ويحاول وزير الثقافة (من دون أيّ نجاح) التوفيقَ بين تنطّحه الفرنكفونيّ وتوجُّهه العروبيّ. لكنَّ العلاقة بين التوجهَيْن متنافرة، لا بسبب الأخذ باتِّجاه شوفينيّ قوميّ يَرْفض الانفتاحَ على الغير؛ فالحقّ أنَّ الانفتاح الثقافيّ في

---

١ ـ Wills Garry, Papal Sin: Structures of Deceit (N.Y.: Doubleday, 2000).

عصر الطغيان ضرورةٌ سياسيَّةٌ وثقافيَّةٌ، خصوصًا إذا أردنا أن يتماشى مفهومُ العروبة مع العصر ومتطلَّباته، فلا نُطعَن من جديدٍ من قِبَلِ نماذج «عروبيَّة» باتت منبوذةً نتيجةً لخبرة الناس بها. غير أنَّ الانغلاق هو من قِبَلِ تلك الأطراف نفسِها التي ما فتئتْ منذ إنشاء دولة الاستقلال تحارب عروبةَ لبنان وتراثه الحقيقيّ. ولعب دورًا هامّاً وشريرًا في هذا المجال فؤاد أفرام البستاني الذي نُصِّب على رئاسة الجامعة اللبنانيَّة عند إنشائها مع أنَّه لا يَحْمل درجةَ الدكتوراه، في الوقت الذي اضطرَّ فيه العلاّمة عمر فرُّوخ إلى التدريس الثانويّ بعد عودته من ألمانيا قبل الحرب حاملاً شهادةَ دكتوراه مميّزة في علوم الشرق الأوسط. ونجح البستاني أيضًا في بثّ أفكاره (كي لا نقول سمومَه) في عقول طلبة لبنان عبر تدخُّله المباشر في وضع المناهج المدرسيَّة رسميّاً.[١]

والحال أنَّ الفرنكفونيَّة، إنْ قبلناها، تشكِّل خطرًا مضاعفًا لأنَّها قد تتحوَّل على أيدي دعاتها المتزمِّتين (وداعياتها المتزمِّتات) حركةً طائفيَّةً فجَّةً (وهي في أساسها حركةٌ سياسيَّة) خصوصًا إذا تراجَعَ الدورُ السوريُّ في لبنان، فتخلُو الساحةُ إذّاك لغلاة القوميَّة اللبنانيَّة الذين لم يُنهوا خيارَ التحالف مع الخارج المعادي للعرب. وتصبّ الدعواتُ الصاخبة إلى العفو عن عملاء إسرائيل، وإلى التنادي لإنقاذهم، في مصبّ نقض تحريم التعامل مع هذا العدوّ نفسه. والحقّ أنَّ الحركة السياسيَّة للفرنكفونيَّة تزداد زخمًا، ولاسيّما أنَّ الإعلام اللبنانيّ فَقَدَ الحريَّةَ فعلاً لا قانونًا، وذلك لأنَّ المال الحريري نَجَحَ في إقصاءِ أو إسكاتِ غالبيَّة الأصوات المعارضة. ويستفيد من مؤتمر الفرنكفونيَّة كلُّ مَنْ روَّج في الماضي، ويروِّج في الحاضر، أسطورةَ «الدور العالميّ» للبنان، وهو دورٌ مزعوم لم يلعبه لبنانُ يومًا.[٢] وقد ساعد في ترويج مقولة «العبقريَّة اللبنانيَّة» و«الدور اللبنانيّ العالميّ» أساطينُ السياسة والثقافة الشعبيَّة، مثل سعيد عقل والأخوين رحباني - والأخيران حوّلا شخصًا مثل فخر الدين (وهو الذي كان يرتعد من ذِكْر السلطة العثمانيَّة التي دَعَتْه إلى حضرتها وقتلتْه) أسطورةً عالميَّةً شبيهةً بنابوليون. وصَدَّقَ هذه الأسطورةَ المدرجَةَ في المناهج المدرسيَّة المقرَّرة مَنْ صَدَّقَ. ونرى في جمهوريّةٍ ما بعد الانتهاء الرسميّ للحرب محاولةً ناجحةً لتسريب عقائد اليمين اللبنانيّ في أوساط الشعب. وما فكرةُ «عيد العَلَم» لصاحبها بطرس حرب إلاَّ لشرعنة غلوّ القوميَّة اللبنانيَّة وإعطائها الصفةَ الرسميَّةَ عندما شَغَلَ منصبَ وزير التربية في عهد إلياس سركيس البائد.

إنَّ لبنان - وهذا يُحرج مَنْ نَشَأَ على تصديق أساطير هذا البلد - كان هامشيّاً وسيظلّ كذلك. والقول بالنبوغ اللبنانيّ يَحْمل في ثناياه من العنصريَّة ما يحمل: فالنتيجة المنطقيَّة لهذه الفرضية هي أنَّ الشعب اللبنانيّ متفوِّق جينيّاً وبيولوجيّاً على جيرانه من الشعوب، وإلاَّ فكيف يُمْكن تفسيرُ هذه النظريَّة؟ طبعًا هناك مَنْ يرى في فرضيَّة «النبوغ» تفوُّقًا نوعيّاً لأفراد طائفة على أخرى؛ وهناك تصاريحُ تختلف في صراحتها (وخصوصًا من لدن الكسليك أثناء الحرب) حول هذا الموضوع.

أمَّا سببُ نظر العالم إلى لبنان في مرحلةٍ ما فإنَّه لا يمكن عزوُه إلى لبنان، بل إلى **موقع** لبنان في محيطه. فدور لبنان مستحيل خارج محيطه العربيّ. والدور الذي لعبه هذا البلد في فترة

١ - ويبدو أنَّ البستاني كان عازمًا منذ وقت مبكّر على وضع مناهج التعليم في لبنان؛ أُنظرْ مقاله «البكالوريا اللبنانيَّة والتعليم العصريّ» (**المشرق**، آذار ١٩٣٠) وفيه يعيب على وزارة المعارف اعتمادَها على كتابٍ وضعَه «مصريٌّ.» (ص ٢٨٢)

٢ - كان أمين الجميّل يردّد إبّان تبوُّئه منصبَ الرئاسة عنوةً شعارَ «أعْطونا السلامَ وخُذوا ما يُدْهِش العالَمَ.» والغريب أنَّ هذا الشعار لم يحظَ بالتعليق أو السخرية؛ ويُمْكن المرءَ أن يتصوَّر ردّةَ الفعل الأجنبيَّة على التبجُّح والادّعاء اللذَيْن يتضمَّنهما.

ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

الخمسينيَّات والستينيَّات يَرْجع إلى روابطه بمحيطه العربيّ سياسيّاً واقتصاديّاً، وهو ما جعله مرتعًا مرغوبًا للدول والشركات والاستخبارات الغربيَّة التي استفادت من انفتاحه النسبيّ والمشروط.

ويحاول رئيسُ الحكومة أن يدلّل على نجاحه في إعادة «دور لبنان إلى الخارطة،» على نحوِ ما تحدَّث في مقابلة تلفزيونيَّة مع شبكة NBN في ٥ آب (أغسطس). وتأتي القمَّة الفرنكفونيَّة وقصرُ المؤتمرات الشهير (وهو مثلُ غيره من مشاريع الحريري سَهْلُ التخطيط والتنفيذ لأنَّ نفقات بنائه تتكفَّل بها الأجيالُ اللاحقةُ من شعب لبنان التي ستُرهقها الديونُ التي يراكمها حكمُ الحريري «الديناميكيّ»). لكنْ ما هي أهميَّةُ المؤتمر الفرنكفونيّ، وأين الشفّافيَّة في رفض وزير الثقافة التصريحَ بنفقات القمَّة الفرنكفونيَّة (حديث مذكور سابقًا مع جريدة **النهار**)؟ أوَليس مستهجَنًا جدّاً رفضُ وزيرٍ تقديرَ الكلفة في عهد الديون الخارجيَّة الهائلة وفي زمن الجوع؟

لكنَّ لبنان النخبة لم يعِ يومًا مصيرَ الأكثريَّة من الشعب. ولنرَ إلى المحاولة المصطنعة والممجوجة لبعث حياة اجتماعيَّة ومهرجانيَّة صاخبة وكأنَّ الحرب لم تكن، أو كأنَّ الحنين إلى ما قبل الحرب لا يتضمَّن تناسيًا للفروق الطبقيَّة والطائفيَّة والسياسيَّة التي وسمتْ نظامَ ما قبل الحرب وأدّت بازدياد إلى تضعضع نظامٍ كان يجب ألا يستمرّ ـ وها هو يُبعث حيّاً، وبصورة أكثر اشمئزازًا من الماضي، وفي ضوءِ محاصصةٍ طائفيَّةٍ تُشْبه صفقاتِ أقطابِ المافيا في عزّها.

الخلاصة

إنَّ بديل الفرنكفونيَّة يكون في تجاوز العقدة اللبنانيَّة التي على أساسها تُرفض هويَّةُ لبنان الحقيقيَّة: وهي، شاء مَنْ شاء وأبى مَنْ أبى، عربيَّةٌ ـ إسلاميَّةٌ (بالمعنى الحضاريّ التاريخيّ للكلمة الأخيرة لا الدينيّ طبعًا)، مستفيدةٌ من الوجود المسيحيّ في لبنان وخصوصيَّته دون أن يَطْمس هذا الوجودُ التراثَ التاريخيَّ للبلد.[1] ويكاد لا يَخْتلف مستشرقٌ غربيٌّ أو مستشرقةٌ غربيَّةٌ على أمر هويَّة لبنان، وكثيرًا ما يُقابِلُ المستشرقون والمستشرقات دعواتِ «القوميَّة اللبنانيَّة» و«الفرادة اللبنانيَّة» بالاستنكار والاستهزاء.

وكيف يمكن أن تستديم هويَّةٌ تَعْتمد في أساسها على نفي الشيء والأخذِ بعدمه؟ كيف يمكن أن تكون فرنكفونيَّةُ لبنان حقيقيَّةً، وآثارُ الثقافة الفرنسيَّة هامشيَّةٌ وسطحيَّةٌ، باستثناء استعمال مفردات هنا وهناك واستخدام أسماءِ الأفراد والحلويّات الغربيَّة، الخ؟ وكيف يمكن أن تعبِّر الثقافةُ الفرنكفونيَّة عن تطلُّعات جيل جديد من اللبنانيِّين واللبنانيَّات، وفرنسا تبدو لهم (ولهنّ) أبعدَ من قرى جرود الضنيَّة؟! هذا لا يَنْفي الارتباطَ الثقافيَّ الحقيقيَّ لجزء من لبنان بالثقافة الفرنسيَّة، خصوصًا في وجود المدارس والجامعات ذات التوجُّه الثقافيّ واللُّغويّ الفرنسيّ. لكنَّ ربط هذا التوجُّه بهويَّة لبنان السياسيَّة والقوميَّة، أو فَرْضَ هذا التوجُّه على شعب لبنان **بأكمله**، إنَّما هو من أعمال «الهيمنة الثقافيَّة» بالمفهوم الغرامشيّ، ومِنْ أعمال بناء وطنٍ لَبِنةً لَبِنةً على مقاسِ نخبةٍ ما. وقد تكون باريسُ وشوارعُها

---

١ ـ في دراسة ميدانيَّة شاملة لعدنان الأمين ومحمد فاعور لآراء وتوجُّهات الطلاّب الجامعيِّين في لبنان يتبيَّن أنَّ هناك اليوم شبهَ إجماع (على الأقلّ في أوساط العيِّنة) على عروبة لبنان، وإن اختلفتْ نِسَبُ التأييد بين الطوائف. أنظرْ عدنان الأمين ومحمد فاعور، **الطلاّب الجامعيُّون في لبنان واتِّجاهاتهم** (بيروت: الهيئة اللبنانيَّة للعلوم التربويَّة، ١٩٩٨)، ص ٣٦٠.

أقربَ إلى **بعض** أبناءِ وبناتِ الوطن، و«كلُّهم للوطن» طبعًا، من بعض أحياء بيروت نفسها. لكنَّ الوطن - أيّ وطن - وهو مشروع خياليّ كما يذكِّرنا بَندِكْت أَنْدِرْسن في كتابٍ شهير، إذا قُيِّض له أن يدوم، يجب أن يعبِّر عن «خيال» ذي جذور تمتدّ إلى كلّ أنحاء لبنان وقراه ومدنه، حتى لا يتحوّل الوطنُ إلى مقهى «ستاربَكْس» أو إلى ما هو أسوأ.

إنَّ تغريبَ لبنان عن ذاته، أو نفيَه عنها، يَسْهلان بالطبع في وجود المدارس والجامعات الخاصَّة التي تُعزِّز طمسَ هويَّة لبنان الحقيقيَّة. وللأسف، يَلْعب خرِّيجو الجامعات الخاصَّة وخرِّيجاتُها دورًا استثنائيّاً في قيادة دفّة الدولة ومؤسَّسات المجتمع. وساعدت الحربُ على إقصاء الجامعة اللبنانيَّة عن لبنانيَّتها. ولا يشكّل رفضُ توحيد الجامعة إلاَّ رفضًا للبننتها، خصوصًا أنَّ بعض فروع هذه الجامعة اللبنانيَّة انتهج تقليدَ الجامعات الخاصَّة في تغييبها؛ وهذا ما يُعَدُّ عِلْمًا «صحيحًا» بحسْب المفهوم المستنِدِ إلى عقدة الأجنبيّ.

ثم إنَّ مقاومة الفرنكفونيَّة تأتي في وضع دوليّ تقف فيه فرنسا على الهامش المُهمَّش. فماذا فعلتْ فرنسا عندما رَفَضَت الولاياتُ المتحدة رفضًا قاطعًا برنامجَها لإنهاء أزمة الخليج في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠؟ لا شيء. وما هي فائدةُ صداقة رئيس الحكومة اللبنانيَّة لرئيس جمهوريَّة فرنسا؟ الجواب هو أيضًا لا شيء، إلاَّ إذا أردنا الاغترارَ بالاستقبال الحميم الذي يَلْقاه الحريري عند وفادته إلى باريس. ولا يَعْني هذا الكلامُ التسليمَ بالهيمنة الأميركيَّة أو بالـ «hyperpuissance» (القوَّة الفائقة) على حدّ تعبير وزير خارجيَّة فرنسا. لكنْ هل يكون من المنطقيّ من منظور الدول الفقيرة التي نحنُ منها، شئنا أم أبينا (و«نيّال مَنْ له مَرْقد عنزة في **خارج** لبنان»)، استبدالُ هيمنةٍ أجنبيَّةٍ أميركيَّة بهيمنة أخرى؟ فَلْنَتْرُكْ فرنسا والولاياتِ المتحدةَ في صراعهما حول العولمة الثقافيَّة، لأنَّنا في غنًى عن تورُّطنا في صراعٍ لا مصلحة البتَّةَ لنا فيه. فالحقّ أنَّ مواجهتنا للعولمة الثقافيَّة لا تكون بمناداتنا بثقافة فرنسيَّة (مهما أحبَّها شارل حلو ومهما تربَّينا على تعلّمها وعلى تقديرها)، بل بالدفاع عن ثقافتنا العربيَّة في مواجهة العولمة. ويُمْكن النظرُ إلى المستوى التسطيحيّ وغير المتنوِّع للإنتاج الموسيقيّ العربيّ الحاليّ بوصفه نتاجًا للعولمة الثقافيَّة: فهناك تقليد للنتاج الأميركيّ المبتذل، حتى في الإيقاع، وخصوصًا في الـ «ڤيديو كليپ» وهو مستورد وبفشلٍ عن نماذج الـ MTV (المحطة الموسيقيَّة الأميركيَّة).

وممّا أضعفَ النتاجَ الثقافيّ اللُّبنانيّ إصرارُ دعاة القوميَّة اللبنانيَّة على إبراز خليط متنافرٍ ومتهافتٍ لا هو بالشرقيّ ولا هو بالغربيّ. ويُمْكن الحُكْمُ على سنواتِ ما قبل الحرب بوصفها شاهدةً على نجاح تجربة الإنتاج العربيّ في لبنان (من خلال مجلاّت **شعر** والآداب و**دراسات عربيَّة** و**مواقف**)، وشاهدةً على فشلِ وبطلانِ محاولات الانعزاليَّة في رفع الزجل وشِعْرِ ميشيل طراد إلى مصاف الأدب الرفيع. ولا يَعْني هذا أن تُشكَّلَ لجنةُ خبراء لتمييز الغثّ من السمين في الأدب والشعر على غرار بعض الأنظمة التي فَرَضَتْ «ذوقًا» وعمّمتْه قسرًا على الجماهير. بل على العكس؛ فحريَّة الفكر والتعبير الخلاَّقة من شأنها، إذا لم تقع تحت سيطرةٍ ماليَّةٍ وسياسيَّةٍ وحدانيَّة كما هو حاصلُ اليومَ، أن تَبْعث الروحَ في التنوُّع الثقافيّ الفذّ لكيْ يكون للعامَّة موادُّ متوافرةٌ للانتقاء الحرّ وللاختيار الطوعيّ من دون هيمنة أجهزة هذه الجريدة أو تلك. والغنى الثقافيّ والفنيّ يَعْتمد على تنوُّع المصادر وعلى تنوُّع وسائل التعبير وأشكاله. ويُمْكن النظرُ إلى فترة العصر الذهبيّ للأدب العربيّ في أوجهٍ متعدِّدة بوصفها نتيجةً لتعدُّد الثقافات، لا بالمعنى الذي يَزْعمه أهلُ الكسليك طبعًا، ونتيجةً أيضًا للانفتاح الهائل الذي أظْهرته الحضارةُ الإسلاميَّةُ الكلاسيكيَّة. وفي هذا

ضدّ الفرنكفونيَّة: بطلان الثقافة اللُّبنانيَّة

الإطار، يُمْكن النظرُ إلى نتاجات الثقافة المحليَّة، بما فيها الشعرُ المكتوب باللَّهجة المحكيَّة، بوصفها جزءًا لا يتجزَّأ من الثقافة الشعبيَّة، دون محاولة جعل هذا الإنتاج دليلاً قاطعًا على فرادةِ ما يسمَّى بالثقافة اللبنانيَّة.

ويجب في هذا الصدد التصدِّي المباشر لدعوات «الأصالة» لما فيها من حوافز شموليَّة وقمعيَّة، وهي محبَّذة من قبل الأصوليَّات الدينيَّة (ولبنان مصاب بعدد منها). فمفهوم الأصالة يَفْترض مقياسًا صارمًا يقاس على أساسه كلُّ ما يُنْتَجُ من ثقافة. وتحت شعار «الأصالة» تُمْكن محاربةُ ما يُعتبر خارجًا عن أذواقِ وأخلاقِ أهلِ الأزهر أو أهل الكسليك، لا فرق. ومن المخيف أن تكون للسلطات الدينيَّة سلطةُ التقرير، خصوصًا أنَّ التخوين والتكفير استُعملا على مدى أكثر من قرن (حتى لا نعود تاريخيّاً القهقرى) من أجل فرض الرأي والتفسير الواحديَّيْن.

وهناك واقع لا يُمْكن نفيُه في أوساط نُخَبِ الطوائف: فليس مصادفةً مثلاً أن يكون بشارة الخوري في مرحلةِ ما بعد الاستقلال (هذا إذا افترضْنا أنَّ لبنان كان مستقلاً يومًا) هو رئيس الجمهورية الوحيد الذي يُتْقن اللُّغة العربيَّة. فكلُّ رؤساء الجمهوريَّة لم يكونوا يُتْقنون اللُّغةَ العربيَّة، وهناك منهم مَنْ كان أكثر طلاقةً بالفرنسيَّة منه بالعربيَّة (مثل الرئيس الحاليّ). وهناك مَنْ لم يكن يتقن أيّ لغة (مثل سليمان فرنجيَّة). ويُمْكن تعميمُ هذا القول على رؤساءِ ما قبل الاستقلال: فأيُّوب ثابت كان الرئيسَ الوحيدَ بينهم الذي أتقن اللُّغةَ العربيَّة (وقد كان إنكليزيَّ العلم العالي، وهذه ليست مصادفةً أيضًا). بينما نجد أنَّ رؤساء المجالس والوزراء (بمَنْ فيهم القليلُ العلمِ صبري حمادة) أَتْقنوا اللُّغة العربيَّة (باستثناء سامي الصلح الذي ربَّما تعرَّض للتشوش نتيجةً لإلمامه بالتركيَّة، ومن اللافت أنَّ الرجل هذا كان أكثر تحالفًا مع طاقم السياسة التقليديَّة المارونيَّة، وتَخْضع ذكراه لإنعاش سياسيّ على يد إحدى الجرائد لأسباب واضحة). فسياسة ثقافات الطوائف تَخْتلف باختلاف البيئة السياسيَّة والتعليميَّة، لكنَّ هناك تغيُّرًا ملموسًا اليوم في الثقافات اللُّبنانيَّة العامَّة والطائفيَّة، إذ يتمّ طمسُ التعلُّم العربيّ لأنَّ فكرة العولمة تَعْتبر ثقافاتِ الدول الفقيرة غيرَ مفيدة، لا بل مضرَّة. ولهذا تَنْتشر في معظم مدن العالم العربيّ وبعض قراه مدارسُ تُعَلِّم اللُّغات الأجنبيَّة، وخصوصًا الإنكليزيَّة.

إنَّ في محاولة إيقاظ الفرنسيَّة من سباتها ضررًا على الجيل الناشئ الذي (بالإضافة إلى أولويَّة حاجته سياسيّاً وثقافيّاً إلى اللُّغة العربيَّة) يحتاج إلى لغةٍ أصبحتْ عالميَّةَ الاستعمال؛ وهذه ليست اللُّغةَ الفرنسيَّة. وهذا لا يعني أنَّ علينا استبدالَ الفرنكفونيَّة بالأنكلوفونيَّة، أو مناصرةَ هذه الجهة أو تلك في حروب العولمة بين الدول المتقدِّمة. فنحن نَنْتمي، وبشيء من الفخر، إلى عالم الجنوب الرحيب وإنْ كان ينوء اليومَ تحت عوامل استغلال دول الشمال. لكنْ على مَنْ يَنْطلق في اعتناقه للفرنكفونيَّة أنْ يَعْلم أنَّ الفرنسيَّة فشلتْ في اللَّحاق بالإنكليزيَّة في سباق التكنولوجيا والعلوم العالية. وفي الوقت الذي تثار فيه شُبُهات حول كلّ مشروع وكلّ خطة يتساءل المرءُ أيضًا عن خلفيَّة القمَّة الفرنسيَّة وكيف انتهتْ إلينا (نجّانا اللَّهُ من القمم التي لم تُطْعِمْ شعبًا فقيرًا). فهل هناك صفقة سياسيَّة وماليَّة وراءها؟ وكم ستكون أعباءُ البلد الماليَّة من جرائها؟ طبعًا، زيادةُ الدَّيْن لا تُقلقُ بالَ الحريري، الذي لا ينفكّ عن ترداد أنَّ كلَّ الدول مديونة؛ وكأنَّ الديون سواء!

وواقع الثقافة في لبنان، أو واقعُ ضحالة ما يسمَّى بـ «الثقافة اللُّبنانيَّة،» لا يأتي عفوًا، كما لا تأتي الثقافةُ عفوًا في أيّ بلد.

فالثقافة، كما وضَّح الفيلسوف الألمانيّ ثيودور أدورنو، هي نتاج «صناعة الثقافة.»[١] وصناعة الثقافة هي مثلُ صناعة الأحذية والسيارات: فهي في المجتمع الرأسماليّ تَحْتاج إلى عمّال وإلى مصانع وإلى تسويقٍ وتعليبٍ وترويج ودعايةٍ، بالإضافة إلى «قولبة الأذواق» حتى تستسيغَ ما يتمّ تعليبُه للرجال والنساء. ولا يُمْكن التقليلُ في الحديث عن الثقافة في لبنان، وعن طغيان إيديولوجيا الفرنكفونيَّة، من دور المدارس الخاصة والإرساليَّات وأدوارِ أجهزةِ صناعة الثقافة، خصوصًا جريدة **النهار** والأخوانِ رحباني ـ والأخيران مسؤولان إلى درجة كبيرة عن الدرك الذي وصلته الثقافةُ المتنافرة في بلادنا. ويُمْكن القولُ إنَّ جريدة **النهار**[٢] في أجهزتها المختلفة (من المطبوعات المصوَّرة التي تتلقّى عقولَ أطفالنا طريَّةً، إلى «دار النهار،») فإلى الجريدة التي لاتزال للأسف هي الأكثر مبيعًا مع أنَّ مسؤولهَا الجديدَ يفوق والدَه في طائفيَّته وفي يمينيَّته ويفوقه أيضًا في سوء استعماله للُّغة)[٣] هي رائدة في صناعة الثقافة «اللُّبنانيَّة» خصوصًا في النصف الثاني من القرن العشرين. فهي التي قرَّرتْ ما هو المستساغُ من الشعر وما هو مرُّ المذاق، وهي التي قرَّرتْ ما هو الفنُّ وما هو المقوتُ من النتاج الفنيّ، وهي أيضًا رفعتْ سعيد عقل والرحابنة إلى مصاف الآلهة. والحديث عن صناعة الثقافة في لبنان يحتاج إلى فهم تفاصيل بناء الثقافة عبر السنوات بالاتِّفاق مع أجهزة صناعة الثقافة، لا على الطريقة المؤامراتيَّة بل نتيجةَ توافقٍ إيديولوجيّ حقيقيّ يَهْدف إلى تنشئة الشعب على الولاء لنموذج ما «للوطن» ـ وهذا النموذج يمثِّل تطلُّعاتٍ طبقيَّةً وطائفيَّةً لا تتَّفق بالضرورة مع طموحات اللبنانيِّين واللبنانيَّات في السِّلْم والرفاه.

وأخيرًا، ولكَيْ نتعامل مع الواقع البشع كما هو، فإنَّ علينا الاعتراف بأنَّ القمَّة الفرنكفونيَّة ستُعقد، وبأنَّ الجماهير ستَحْتشد، وبأنَّ الحكومة ستعلِنُ فتحًا مُبِينًا، وبأنَّ الظرفاء والظريفات من نخبة المجتمع البورجوازيّ سيتباهون ويتباهين بحسن نُطقهم ونطقهنّ للُّغة الفرنسيَّة. أمَّا الدَّيْن فسيتراكم، وأمَّا الثقافة فستَنْحدر، وأمَّا الشعبُ فسيَسْهل خداعُه كالعادة، وللأسف. ذلك لأنَّ خداع الجماهير ـ كما شَرَحَ أدورنو ـ إنّما هو صِنْوٌ لصناعة الثقافة!

كاليفورنيا

أسعد أبو خليل
كاتب لبنانيّ. أستاذ العلوم السياسيَّة في جامعة ولاية كاليفورنيا ـ ستانسلاس، وباحث في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. يصدر له عن دار الآداب قريبًا كتابٌ عن العولمة. وهو مؤلِّف كتاب:
Historical Dictionary of Lebanon (Lanham, MD: Scarecrow Press, 1998).

١ ـ Theodore Adorno & Max Horkheimer, The Dialectic of Enlightenment (N.Y.: Continuum, 1994), p. 120 - 167.

٢ ـ للتعرُّف على آراء جريدة **النهار** اليمينيَّة، ولاسيَّما آراء غسان تويني ولويس الحاج، أنظرْ كتابَ الأخير: **من مخزون الذاكرة** (بيروت: دار النهار، ١٩٨٣).

٣ ـ يقول غسان تويني، الذي نصَّبه نوّاف سلام فيلسوفًا في مقدّمة كتاب الأوّل **محاضرات في السياسة والمعرفة** (بيروت: دار النهار، ١٩٩٧، ص ٩٠)، ما يلي: «ولولا الأستاذ لويس الحاج لما كتبتُ جملةً صحيحة لأنِّي كنتُ أَجْهل كلَّ قواعد الصرف والنحو، ولا أزال.» أُنظرْ: غسان تويني، **سر المهنة وأسرار أخرى** (بيروت: دار النهار، ١٩٩٥، ص ١٠٨).